

## الفصل الأول الإعجاز القرآنى

الإعجاز هو إظهار صدق الرسل - عليهم جميعا السلام - بإظهار أمور على أيديهم يعجز البشر عن معارضتها أو صنعها، ولقد أيد الله كل رسول بمعجزة تناسب قومه وعصره وحدود رسالته مثل سفينة نوح وناقة صالح وعصا موسى وإحياء الموتى بإذن الله على يد عيسى عليهم جميعا السلام، وانتهت المعجزات الحسية كلها، وجاء خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ رسولاً للبشرية كلها فى كل مكان وزمان (وليس للعرب وحدهم) كما فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(سبأ: ٢٨)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء)

وبملاحظة الألفاظ الواردة هنا مثل (جميعا، وكافة، للعالمين) نستنتج أن القرآن رسالة عالمية، وأن الإسلام دين الحق لكل البشرية كما فى قوله تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُد

عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة، الصف: ٩)

ورغم بشارة سيدنا موسى وعيسى بقدم سيدنا محمد - عليهم جميعا السلام - فإن معظم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ينكرون للأسف نبوة سيدنا محمد ﷺ كما فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَنْبِئُ إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ

إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ

بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

(الصف: ٦)

ولما كان محمد خاتم النبيين لكل العالمين فقد أيده الله عز وجل بمعجزة خالدة متجددة وهي القرآن الكريم، أى الكتاب السماوى الجامع الشامل المعجز المهيمن على كل الكتب السابقة والمرجع الشامل لها كما فى قوله تعالى:

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ

وَمُهَيِّئْنَا عَلَيْهِ ۝ (المائدة: ٤٨)

ويتميز القرآن بأنه لم يحور، لأن الله سبحانه تعهد بحفظه كما فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ (الحجر)

فالقرآن الكريم حجة الله على عباده ولا ينبغى أن يكون إعجازه قاصرا على اللغة والبيان والبلاغة ليتحدى فصحاء العرب فقط؛ لأن الإنسانية كلها بجميع شعوبها على اختلاف لغاتهم مخاطبة منذ فجر الإسلام بالقرآن الكريم، بل ومطالبة بالتسليم بأنه كلام الله وليس كلام البشر، فهو صادق وصالح لكل مكان وزمان، وسبقى القرآن حتى قيام الساعة معجزة باقية يتبين للناس منها على مر الدهور وجه لم يكن يتبين وناحية لم يكن أحد يعرفها، فيكون هذا التجدد والإعجاز بمثابة تجديد الرسالة الإسلامية، وكأنما رسول الله محمد ﷺ قائم بيننا فى كل عصر يدعو الناس إلى دين الله ويريهم دليلا على صدقه، آية جديدة تطابق بين القرآن الكريم والعلم اليقيني، مصداقا لقوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ

يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ (فصلت)

فالقرآن شهادة إلهية على صدق نبوة سيدنا محمد ﷺ وشهادة أبدية إلى يوم القيامة على عالمية رسالته، يقول سبحانه:

﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ

هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ۝ (الأنعام: ١٩)

وقوله عز وجل:

﴿ لَذِكْرِ اللَّهِ يَتَّخِذُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ وَيُعَلِّمُهُ ۝ (النساء: ١٦٦)

وبهذا يشهد الله على معجزة القرآن التي احتوت العلم الإلهي الذي أراد سبحانه أن يبلغه للناس، ولذلك قال ﷺ:

«ما من نبي من الأنبياء إلا أعطى من الآيات (أى المعجزات) ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

قال ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث:

«ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة فى أسلوبه وفى بلاغته وإخباره بالمغيبات - فلا يمر عصر من العصور إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون - يدل على صحة دعواه فعم نفعه من حضر ومن غاب ومن وجد ومن سيوجد».

ولهذا فالقرآن معجزة متجددة وبه أنباء لا تتجلى للبشر إلا بعد حين، وعطاؤه ممتد إلى قيام الساعة، فالمستقبل لا يقطع كما فى قوله تعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَعَلَّمَنَ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ (ص)

وقوله سبحانه:

﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (الأنعام)

ويعدد فضيلة الشيخ محمد الصابونى فى كتابه التبيان فى علوم القرآن وجوه الإعجاز القرآنى كما يلى:

- ١ - النظم البيديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب.
- ٢ - الأسلوب العجيب المخالف لجميع أساليب اللغة العربية.
- ٣ - الجزالة التى لا يمكن لمخلوق أن يأتى بمثها.
- ٤ - التشريع الدقيق الكامل الذى يفوق كل تشريع وتطبيق.
- ٥ - الإخبار عن الغيب الذى لا يعرف إلا بالوحى.
- ٦ - الوفاء بكل ما أخبر القرآن من وعد ووعيد.
- ٧ - وفاؤه بحاجات البشر.
- ٨ - تأثيره فى قلوب الأتباع.
- ٩ - عدم التعارض مع العلوم الكونية المقطوع بصحتها<sup>(١)</sup>.

(١) محمد على الصابونى: التبيان فى علوم القرآن مكتبة الصابونى بمكة المكرمة.

ويوضح الأستاذ محمود محمد ربيع<sup>(١)</sup> معجزة الكلمة في القرآن كما يلي:

وإنه لمن العجيب ونحن نقيم أمر الإنسان والحياة كلها: ديانة وحضارة على محور «الكلمة» أن تكون معجزة الرسالة المحمدية والحضارة الإسلامية هي معجزة «الكلمة» ممثلة في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهي معجزة تختلف عما سبقها من معجزات الرسالات السماوية: فكللمات القرآن قد خلدت على الدهر. بينما انقضت المعجزات الأخرى بانقضاء زمنها.

بيد أن هناك فرقا جوهرياً وأساسياً بينها وهو أن تلك المعجزات السابقة إنما كانت في جملتها معجزات مادية كعصا موسى عليه السلام، وكخلق الطير، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى. وكانت من حيث هي كذلك تتناسب مع عصرها وناسها الذين كانوا على حال من البداية والبداءة تعجزهم وتبهرهم فيها الخوارق الطبيعية المادية وبخاصة في الأشياء التي برع بعضهم فيها كالسحر في زمن موسى عليه السلام، والطب في زمن عيسى عليه السلام.

جاء موسى عليه السلام بعصاه وألقاها فإذا هي حية تسعى تبتلع حبالهم وعصيهم التي خيّل إليه من سحرهم أنها تسعى.. وضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم.. ثم ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا.

وجاء عيسى عليه السلام بما فاق علم قومه وحذقهم في الطب فأبرأ الأكمه والأبرص.. وأحيا الموتى.. وخلق لهم من الطين طيراً. وبهذا فقد أتى كلُّ بالبينة، وأقام الحجة، وأثبت أنه رسول من عند الله.

وهنا تكون المعجزة قد أدت دورها ولم تعد هناك حاجة إليها فهي حجة ودليل للرسول على قومه وفي عصره فقط.

ولو ظلت هذه المعجزات إلى عصر كعصرنا هذا : عصر الذرة واللاسلكي والعقول الإلكترونية والطائرات والرادار والصواريخ بأنواعها المختلفة: من عابر للقارات، وعابر للفضاء، وحامل للسفن الكونية التي تغزو الكواكب. هذا العصر الذي تستبدل فيه الأجزاء والأعضاء البشرية: فتوضع القرنيات مكان القرنيات فتبصر العيون، وتزرع القلوب مكان القلوب في محاولة لإطالة أمد الحياة. عصر بنوك الدم و(قطع الغيار البشرية) ومحاولة استنساخ الحيوان والإنسان.

نقول لو ظلت معجزات الأنبياء إلى عصورنا هذه.. لظنها الناس شيئاً من مستحذات العلم والتكنولوجيا.

(١) سؤال كبير: لماذا الإسلام؟ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨.

ومن الناحية الأخرى.. لو كان وصل إلى هؤلاء الأقدمين أن شخصاً «كأرمسترونج» - رائد الفضاء الأمريكي - قد صعد إلى القمر فى ساعات (راكبا طبقا عن طبق بصاروخ متعدد المراحل) وسار عليه بضع خطوات.. وجمع منه بعض «العينات».. ثم هبط يلقى عليهم بالتحيات.. لقال عنه قوم كاليونان الأقدمين: إنه إله القمر، ولاقال عنه آخرون: ليس هذا ببشر، ولكانوا عبوده من دون الله! ولكننا - نحن المسلمين - وجدنا هذا مذكورا بصريح العبارة كإعجاز علمى للقرآن فى قوله تعالى:

﴿ وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٦﴾ لَتَرَ كَبُيُّنًا طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (الانشقاق)

هذه المعجزة الإسلامية.. معجزة الكلمة فى القرآن معجزة معنوية، ومعجزة روحية، فلا يتصدى لها كائن من كان فى مجالها. وهى ما زالت على ابتداء ما مضى، وعلى امتداد ما يجدر وما يُستقبل آية بينة، ومعجزة باهرة تتحدى العالم كله: إنسه وجنّه.. وتقيم عليهم الحجة.. وتقطع عليهم السبيل كما فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ لِّسِنِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا

يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء)

والإنسان - كما يقولون - هو الحيوان الناطق - والقرآن كمعجزة للكلمة على اتصال دائم بقلبه وعقله، فهو معجزة إلهية متجددة فى وجدان كل فرد.. وكل جماعة.. وكل أمة.. وكل عصر كما وصفها الشاعر:

دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين إذ جاءت ولم تدم

فكانت آخر الرسائل السماوية هى «الكلمة القرآنية» حتى تذكر الإنسان دائما أنه إنسان. وهى معجزة معنوية روحية حتى لا ينازعها آخر المستحدثات العلمية والتكنولوجية كغزو الفضاء فى مثل قوله تعالى:

﴿ يَدْمَعُشْرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الرحمن)

وقد قلنا إن معجزات الرسائل السماوية السابقة إنما كانت مجرد دليل وبرهان على نبوة النبي، وعلى صدق دعواه من أنه رسول من عند الله.. وبهذا كانت المعجزة شيئاً والرسالة شيئاً آخر فعصا موسى عليه السلام ليست رسالة، ومعجزات عيسى عليه السلام كذلك.

وإنما الرسالة هي الدعوة إلى توحيد الله وعبادته. والمعجزة بعد ذلك إنما هي دليل وبرهان على صدق الرسول وحقيقة نبوته كما قدمنا.

أما بالنسبة للإسلام: فإن الرسالة هي المعجزة، والمعجزة هي الرسالة.

فلا فرق بين الرسالة والمعجزة لأن القرآن الكريم هو الرسالة والمعجزة معاً.

وهذا هو سر بقاء المعجزة وخلودها.

والكلمة في القرآن توحد بين العقيدة من جهة والفكر من جهة وبين الزمان والمكان وبين السماء والأرض من جهة أخرى، فالكلمة في القرآن هي بحق محور إسلامية المعرفة.

ويقول أ. محمود محمد ربيع في كتاب<sup>(١)</sup> بعنوان: «الله.. والكلمة» إن الكلمة الإلهية الأزلية الخالدة كلمة: الحق.. والخلق.. والمصير.. كلمة: «كُن».

وهي أخطر وأعظم كلمة في الوجود.

إنها كلمة الأزل والخلود وكلمة الحياة..

هذه الكلمة هي كلمة الخالق الذي بلور قوته وقدرته وعظمته وسره في هذه الكلمة: «كُن».

وذلك حيث يقول في قرآنه الكريم عن ذاته - سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ ﴾ (يس)

ويزيد من خطورة هذه الكلمة وجلالها وشرفها وسموها أنها جاءت في معرض التعقيب على

هذه الآيات الكريمة الآتية التي سبقتها والتي دلت على عظم قدرة الخالق سبحانه:

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْقَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ (٧٧)

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ وَقَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨)

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ

لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ بَنِينَ وَهُوَ الْخَلَّاقُ

الْعَلِيمُ ﴾ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ ﴾ (يس)

(١) مرجع سابق.

هذه كلمة الحق والخلق والمصير:

تجلت أول ما تجلت بالنسبة للمخلوقين في آدم أبي البشر حيث تناسل منه البشر:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ ﴿٥١﴾ ﴾ (آل عمران)

وتجلت في خلق عيسى عليه السلام في هاتين الآيتين الكريمتين من سورة مريم:

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ

يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحٰنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا

فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾ (مريم)